الاستكبار بين الحضور والغياب في الخطاب الشعري لفاطمة الزهراء(ع)

م.د. أسماء محمد صاحب

جامعة المثنى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخّص :

ممّا لاشكّ فيه أنّ الاكبار والاستكبار مفهومان يقفان على طرفي نقيض من جهة الدلالة، وعلى جادةٍ واحدة من جهة البُعد الاشتقاقي للجذر(كبر)، فكان حضورهما فاعلًا من حيث الخّطرة الشعرية المستوحاة والمستوعبة للحدث الآني في ديوان سيدة نساء أهل الجنة عليها السلام؛ لكنّنا آثرنا الاستكبار عنوانًا للبحث كونه جالبًا للإكبار ضرورةً، وأحدهما علةً للآخر ومعلولًا في الآن معًا.

لقد تنازع ذاك الحضور المومأ إليه التماهي والغياب تارةً، والشخوص والإعلان الصريح في حضورهما ضمن السياقات الشعرية التي اكتنفتها تارةً أخرى؛ إذ يستشرف المتلقي في تلك العلاقة واقعًا لحقبةٍ عصيةٍ، ومخاضًا عسيرًا وثّقته الزهراء™ من خلال مفهوم الاستكبار المتعالي بسلبيته، في قبالة الاكبار العالي بإيجابيته، إذ سار هذان المفهومان في خطينِ متوازيين لا يلتقيان داخل المنظومة الاجتماعية الإنسانية وما يصاحبها من رؤية ممتزجة الأبعاد السسيو–تاريخانية، فكانت بحقّ سجلًا واضحًا لتحليل الواقع المزري بُعيد استشهاد النبي ﷺ، ورسم بعض الخطوط البيانية للمسار الممكن استيحائه لمظلوميتها عليها السلام ونزاعها مع غاصبيها، وتنصّل الزمان لها بعدما كان في حضوره الغائب متغنّيًا بإكبار أبيها المصطفى.

لكن الوطيس حمى، والنزاع استعر لمّا قاوم المستكبر، وتصدّى العاتي لمشروع دولة العدل والإنسان الحرّ؛ فشُقّت عصا المسلمين وحلّت محلها دولة الذلّ والاستكبار التي استجلاها بحثنا بوصفها حاضرًا ماديًا تارةً، وغائبًا معنويًا تارةً أخرى، يتوسطهما كشف النقاب عن سمات هذا الاستكبار وخصال المتشرذمين المستكبرين.

الكلمات المفتاحية: (الاستكبار، الخطاب الشعري، فاطمة الزهراء(ع)).

Arrogance between presence and absence in the poetic discourse of Fatima Al-Zahra

Dr. Asmaa Muhammad Sahib

Al-Muthanna University/ College of Education for Human Sciences

Abstract:

There is no doubt that pride and arrogance are two concepts that stand on opposite sides in terms of meaning, and on the same path in terms of the etymological dimension of the root (pride), so their presence was effective in terms of the poetic danger inspired and absorbed by the immediate event in the collection of the Lady of the Women of Paradise, peace be upon her; But we chose arrogance as the title of the research because it necessarily brings arrogance, and one of them is a cause and effect of the other at the same time.

This presence, at times implied by identification and absence, and the characters and the explicit declaration of their presence within the poetic contexts that surrounded them at other times, conflicted. In that relationship, the recipient anticipates the reality of a difficult era, and a difficult struggle documented by Al-Zahra™ through the concept of transcendent arrogance with its negativity, in contrast to high arrogance with its positivity, as these two concepts proceeded in two parallel lines that do not meet within the human social system and the accompanying vision of mixed socio-historical dimensions. It was truly a clear record of analyzing the miserable reality shortly after the martyrdom of the Prophet, may God bless him and grant him peace, and drawing some diagrams of the possible path that could be inspired by her oppression, peace be upon her, her conflict with her usurpers, and time's disavowal of her after he was in his absent presence, singing the praises of her father, the Chosen One.

But the tension heated up, and the conflict raged when the arrogant one resisted, and the oppressor confronted the project of a state of justice and a free person. The Muslim community was torn and replaced by the state of humiliation and arrogance, which our research highlighted as materially present at times, and morally absent at other times, with the middle being the unveiling of the characteristics of this arrogance and the characteristics of the arrogant fragmented people.

Keywords: (Arrogance, poetic discourse, Fatima Al-Zahra (peace be upon her)).

المقدمة:

يعدّ الاستكبار عاملًا رئيسًا من عوامل الانحراف والحياد عن الحقّ، ومجانبة الحقيقة والصواب، الذي بأفعاله المغيّبة ساق الكثير من الأفراد والشعوب نحو الضلال والغواية، ليقعوا جميعًا في المحظور وارتكاب منافيات الوجود(١) والانصراف عن قيم التواضع، وخفض الجناح، وإظهار الحشمة وسواها من المعطيات الإيجابية التي غابت؛ فكثُرت تعرّجات الخطوط الانحرافية للمجتمعات من جرّاء هذا الغياب المعلن في واضحة النهار لتلك القيم وغيرها من الرموز التي كانت حاضرةً يومًا ما يُكبِرها المحيط وينظر نحوها بعين الجلال والوقار والهيبة، إلاّ أن الاستكبار الذي غشّاها في لحظة ضعف ودوغمائية فكرية أسالت لعاب المرء أمام مغرياتٍ مادية دنيوية أقام لها وزنًا ومن حيث لا يشعر جعلت منه تلك المغريات الفاتنة أُلعوبة جوفاء بعصيانها وأنانيتها لتطغى بتمرّدها المتفاقم وتنسحب به شيئًا فشيئًا إلى أتون الرذيلة والانحطاط بتحوّل هذا الجسد الأجوف في نهاية مطافه إلى وحشٍ كاسرٍ، كاشِرًا عن أنيابه لينهشّ لحوم أبناء جلدته بالظُّلم والعدوان.

لقد وقفت الزهراء™ ندًّا قويًا بوجه الاستكبار، هذا المارد المعنوي غائبًا، المتحصِّل الحضور واقعًا ملموسًا من خلال تمثّلاته المادية لدى المتكبّرينَ الطاغينَ من نحو: الخيلاء، والتفاخر والعُجب، والاستعباد، والاستهزاء وغيرها بالفعل الصريح تارةً، وبالمواجهة القولية الحجاجية تارةً أخرى، ولعلّ جزءًا من هذه المواجهة نلحظ مصاديقها في هذه التحفة السنية من الكلمات الطيبة التي وطّنتها

الزهراء في هذا الديوان فكانت سجال بحثنا، الذي حاولنا نقل صورٍ ورموزٍ استكبارية تمّ رصدها كونها تمثّل غيرها من انعكاساتٍ وتصوراتٍ واقعية نرى فيها تجدّد صورة الطاغوت بصوته المجلجل، الذي طوت رمزيته الخانقة للأنفاس المسافات إلى ما بعده من الزمكانية المترامية الأطراف حتى يحطّ رحاله حاضرًا في أشعار الزهراء التي على الرغم من قلّتها لكنّنا وجدنا ترسّمًا لخطى استبداد هذا الاستكبار وطغيانه كانت من الوضوح والجلاء بمكان لدى بطانةٍ من بني البشر الذين لم يرتضوا رؤية الناس لهم إلاّ كما يروا أنفسهم من الكبرياء والأنفة والغرور، فأفصحت ™ عن سرائر بعض تلك البطانة من الصحابة وهي في هنيهة انكسارٍ من الحزن المدقع في فجعه، فأضفت عملقةً للآخر وزادت منه إكبارًا واستكبارًا في الآن معًا في تلك اللحظات سواء بصفته المادية الحاضرة أم المعنوية المغيبة التي تأسّست محاور البحث على هديهما، يتوسطهما محورٌ يمثّل سمات الاستكبار وخصائص المتكبّر.

أوّلًا// الاستكبار بوصفه حاضرًا ماديًا

الاستكبار في أوجز توصيف: العناد والتجبّر على قبول الحقّ تعاظمًا وتمرّدًا(٢)؛ بمعنى آخر عملقة الفرد لذاته وتضخيمها عُجبًا وغرورًا واستعلاءً على كلّ القوانين والأعراف والشرائع العقلية منها والاجتماعية(٣)، وقد تصدّت السيدة الزهراء™ لتلك الخلّة الذميمة جهارًا وتضمينًا، ووقفت بوجهها ندًّا قويًا وجابهتها بكلّ شدة وعنف، محذّرةً من وخيم عواقبها، مظهرةً عجبها من كل امرئ مستكبرٍ قد تناسى المحتوم وتعاظم غيّه(٤):

إنّي لأعجبُ من يروح ويغتدي والموتُ بين بكوره ورواح

والعجب الذي أشارت إليه الزهراء ههنا يحمل بين طيّاته دلالة استعظام الذات باستعظام خصالها التي يراها الإنسان كماليّة، فيركن إليها ناسبًا إيّاها إلى نفسه لا إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا المعنى اومأت™ في ترقيصها لابنها الحسنؑ(٥):

واخلعْ عن الحقّ الرَّسَنْ

واعبُدْ إلهـــًا ذا منَنْ

ولا تُـــوالِ ذا الأَحَنْ

وصية صريحة في مجانبة المتجبّر، الحادّ عن جادّة الحقّ والصواب، الخالع لربقة الإسلام وعبودية الرحمن من عنقه، فهكذا نمط من البشر معادٍ لربه .. معادٍ لنفسه الواجب يقتضي عدم موالاته وتجنّب مصاحبته وملازمته؛ لأنّ الذلّ والمهانة أصبحتا سمة قارّة فيه .. وعلامة شاخصة لديه مهما حاول التنصّل عنها(٦):

فاليوم أخضعُ للذليلِ وأتقي ذلّي وأدفعُ ظالمي بالراحِ

نلحظ هنا نفيًا ضمنيًا لإطاعة المتكبّر والخضوع لإرادته [فاليوم أخضع] تعمّق من دلالة العُجب المشار لها آنفًا من حيث كيفية مطاوعة مَن حَكَمَ على نفسه بالمهانة؟! فالإنسان يبقى ضعيفًا محتاجًا لبارئه مهما بلغ من درجات الرفاه والرقي، فعلامَ الغرور والترفّع على الآخر؟!!؛ إذ إنّ مجرد شعور الفرد بهذا التسامي غير المبرّر وحبّ الهيمنة والانتشاء بانحناء سائر الخلق أمامه والخضوع لسلطانه والتسليم له كلّ هذه الأمور تخلق منه موجودًا متمرّدًا على القيم فلا يرى نفسه بحال من الأحوال بمستوى سائر الناس قطعًا على الرغم من كم الآلالم التي لربّما يستشعرها المستكبر لو قُدّر له خلع كفن جسده، وارتداء اللباس الذي يمثل حقيقته(٧).

ففي خطاب الزهراء هذا نلمح مسكوتًا عنه مفاده- وبغض النظر عن أنثويّة المخاطِب، فهو لسان حال كلّ حرٍ نابذٍ للخنوع-: يا أيها المتكبّر أنا لا أخضع لك وما تراه مني من لين جانب فما هو إلاّ اتقاء شرّك؛ لكن إذا ما زاد ظلمك وعتوّك فهنا لا تأخذني في الحق لومة لائم؛ إذ سأضع غمدي في صدرك وأنحّيك بيدٍ صلبة فإما أن تعود إلى رشدك، أو فلا تلومنَّ نفسك إذا ما وقع المحظور، فصوت العدل يعلو ولا يعلى عليه، والدليل على شخوص هيبة الحقّ وانتكاس راية الباطل

التي حمل لواءها المتكبّرون توكيد الزهراء في مناسبةٍ أخرى – وهي ترثي أباها المصطفى^٨– وحطّها لدوال التكبّر بكلّ أفانينها؛ إذ تقول(٨):

فاليوم أخشعُ للذليل واتقي ضيمي وأدفعُ ظالمي بردائيا

ولعلّ الادقاع في انتكاسة المتكبّر الوضيع أنّنا نلحظ وقوع الدفع بالرداء لا اليد(الراح) وفي هذا شاهد على هوانه وخسّته التي جناها ذاك المتكبّر على نفسه جراء أفعاله المخزية والمشينة من جهة، فصارت تهوي به أدنى الريح قوة فيميل معها حيثما مالت لخفّة نقده ووزنه من الحسنات الذي ذهبت هباءً منثورًا في قبالة رجحان كفة المعاصي والضُّيُوم التي ارتكبها بحقّ أهل العفاف والكفاف وهي الدلالة الثانية القابعة تحت ظلال لفظة(ردائيا)، فالمتجبّر العاتي من النجاسة بمكان أن يدفع براحٍ أو تحرّكه ذراع فلابدّ أن تُتّقى ملامسته من دون واسطة– بغض النظر عن الحُرمة القارّة في الملامسة المباشرة بين المرأة والرجل–، ويُستقبح مزاولته من دون حجاب، فيحجّم ويقزّم كيما يذوق وبال جناية غروره وتعاليه من جهة أخرى.

ثانيًا// سمات الاستكبار و المستكبرين:

لقد أفصحت الزهراء في مواضع من أشعارها عن بعض علامات المستكبرين التي يمكن إجمالها في قولها™ راثيةً الحبيب المصطفى^(٩):

إنّا فقدنـــاكَ فَقْدَ الأرضِ وابلها واختـــلَّ قومُكَ فاشهدهُم ولا تَغِبُ
فليتَ قبلكَ كـــانَ الموتُ صادفنا لمّـــا نُعيتَ وحالَت دونَكَ الكتُبُ
تجهَّمَنا رجـــالٌ فاستُخِـفَّ بنا مذ غِبتَ عنَّا وكلَّ الخيرِ قد غصبُوا
سيعلـمُ المتولّـــي ظُلمَ جانبنـا يومَ القيامـــةِ أنّـــى كنتُ أنقلِبُ
أبدَتْ رجالٌ لنا فحوى صدورهم لمّا فُقِدْتَ وكـلّ الإرثِ قد غصبوا
وكلُّ قومٍ لهم قربـــى ومنزلة عنـــد الإله وللأدنيـنِ مقتربُ

ابتدأ النص بالحديث عن الأساس الذي يقوم عليه الاستكبار وعنوانه الظلم والجور والعدوان وهيمنة الغرور والنزعة التعاظميّة التسلّطيّة لدى بعض الصحابة ورغبتهم الجامحة في السّيطرة على مقاليد الحكم بعد أفول نجم الحبيب المصطفى وعروج روحه إلى بارئها، فتصرَّفوا بطريقة تدلّ على التَّباهي والاختيال في تقصّدهم للتدخّل في شؤون آل البيت،بادئ الأمر من أجل صيانة مصالحهم؛ لأنّهم يرونَ أنفسهم حرّة ولها حقّ فرض ما تريد فرضه على آل المصطفى وسواهم من المسلمين، فضلًا عن تقريرها لنفسها حقّ التدخّل في شؤون الشعوب الإسلامية الأخرى والملمح في دلالة الأرض المفقودة(فدك) من جهة، والفاقدة لوابلها وريعها في إشارة إلى بقية بلاد الإسلام بعد استشراء الظلم من جهة أخرى.

في حين اكتنف قولها[نُعيتَ وحالَت دونَكَ الكتُبُ] مزيّة أخرى للمتكبّر تتمثّل بعدم الاذعان للحقّ ونكث العهود الموثقة بشهادة كثير من الصحابة، فتضامّت تلك المزية خلّة أخرى توارت خلف أُمنية الزهراء ورغبتها في الموت وتتمثّل بتكذيب هؤلاء المختالين لها™ وللآخرين من الأشهاد، واغتصابهم لحقّها ليس في ميراث أبيها فحسب، بل إنّهم صادروا كلّ خيرات البلاد والشعوب الإسلامية [وكلَّ الخيرِ قد غصبُوا]؛ وما ينطوي عليه هذا الاغتصاب من توجيه أصابع الاتهام لهم في قتل النبي^ ومعارضيهم وتلك خصلة اتّصف بها المستكبرون جمعاء على مرّ الأزمان وما يؤيد هذا الاتهام تركيز الزهراء على دوال الاغتيال من نحو[فقدناك، نُعيتَ، غبتَ عنّا، فُقدتَ]، فلا نجد مستكبرًا/طاغيًا إلاّ واعتماده منهج التصفية الجسدية ومصادرة الممتلكات لمعارضيهم غير المذعنين لكبريائهم وغلوائهم، التي جعلت هؤلاء الطغاة يرونَ الصدق والأمانة حليفينِ لهم دون سائر الناس؛ على الرغم من مينهم وبعدهم عن الصدق والأمانة، في محاولة منهم لاشباع نهمهم الاختيالي بإيهام الآخرين بقرب منزلتهم من الرسول^، وتلك مغالطة فاضحة كشفت الزهراء اللثام عنها بقولها [وللأدنيــنِ مقتربُ]، فإذا ما كنتم تدّعونَ القرب من محمد النبي^، وهذا الاقتراب يمثّل صفة عامة ثابتة

في الزمان والمكان لكثير من أبناء المجتمع القرشي بحسب إشارةٍ نلحظها في قول الخليفة الأول يوم السقيفة لإيهام جمهور المهاجرين والانصار بتلك القربى المغيّبة: ((نحن عترة رسول الله^ التي خرج منها، وبيضَته التي تفقأت عنه، وإنّما جيبتِ العربُ عنا كما جِيبت الرحا عن قطبها))(١٠) في حين يضفي الدنو حركةً على ذاك القرب الذي قد تتماهى فيه المسافات زمكانيًا في الحضور والغياب ولاسيما في دلالته الخاصة وكينونة العترة هم(أولي القربى/أهل بيت النبي^) أي عشيرته الأدنون.

ومن علائم المتكبّر المهمة التي وقفت عندها الزهراء في هذا النصّ الحرمان من الحب الالهي(١١)؛ إذ ممّا لا يقبل الشك انّ الله تعالى- وهو المسكوت عنه- يبغض المستكبر/ المستعلي، والموما إليه في قولها:

سيعلـمُ المتولّـــي ظُلمَ جانبنـا يومَ القيامـــةِ أنّـــى كنتُ أنقلِبُ

وأكدت هذا الحرمان الإلهي في موضعٍ آخر؛ إذ تقول(١٢):

فكلّ مـــــا نالك منهم غدًا تَلقَى به في الحشرِ منّا مُنى

فلا محالة إنّ درك جهنم [يوم القيامة] وعلى رؤوس الأشهاد من الخلق يكون مصير هذا الولي المتمرّد على القيم، غير المذعنٍ للحقّ والحقيقة المتمثّلة بجنابها المقدّس™ الذي لم يأل جهدًا في ظلمها وسائر أهليها [ظُلمَ جانبنـا]؛ فالكِبر جعل على عينيه غشاوة وفي أذنيه وقرًا فلم يلِن أمام كلمات النبي^ وشهادة سفرائه من الصحابة المنتجبين رضوان الله عليهم أجمعين(١٣):

فاصفح لأجل المصطفى أحمد ولا تثر من آلهِ أعيُنَا

لذا جاء الخطاب بتأكيد التغاضي المتعمّد من لدنه عن العلم والدراية، بل راح يتمادى في غيّه الى درجة التصدّي لهم وتصفيتهم جسديًا [أبدَتْ رجالٌ لنا فحوى صدورهم]، فالابداء الحاضر هنا يحمل دلالة الإبادة في غيابه وإنزال هؤلاء الرجال ألوان العذابات بآل البيت الأطهار وقد أجملتها

الزهراء بالتركيب الاستفهامي [أنّـــى كنتُ أنقلِبُ] الحاملة لدلالة التهكّم المغرق بانكاريته لكلّ أنواع ذاك المضاض، وهذا الإغراق متأتٍ كذلك من دلالة التعجبّ المتوارية خلف أستار هذا الاستفهام؛ لأنّ هذا [المتولي] قد لجّ في عناده وهو على دراية من كون الزهراء بضعة النبي يغضب لغضبها، ويتأذى لأذاها(١٤)، وهكذا يتضامّ تحقّق الانقلاب الدنيوي الحاضر مع الانقلاب الأخروي المغيّب ببُعدِ مجلسه من رسول اللهﷺ يوم القيامة وبغضه إيّاه: (("إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ والْمُتَفَيْهِقُونَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ:"الْمُتَكَبِّرُونَ"))(١٥).

ثالثًا// الاستكبار بوصفه غائبًا معنويًا

وفيما يتعلّق بالاستكبار المعنوي وهذا يشغل مساحة أكبر لتعدّد أصناف المعنويات وتشظّيها الدلالي؛ إذ تنفتح نصوص هذا اللون الاستكباري على أكثر من رؤية يتأوّلها القارئ لديوان الزهراءﷺ، ومن الأمثلة على ذلك استكبار الحزن ولاسيما بعد وفاة الرسول الأعظمﷺ؛ إذ تقول(١٦):

حضُرت منيته فأسلمنــي العزا وتمكّنت ريبُ المنون جوارحي

نشرَ الغرابُ عليّ ريش جناحه فظللتُ بين سيوفــه ورماحِ

نلحظ في النص عملقة لدلالة الحزن من خلال تنوّع دوالها المادية منها والمعنوية، بدءًا من حضور المنية وعدم تصاغرها بحضرة النبي الأكرم أو عدم استحياء الموت من حبيب رب العالمين- على الرغم من استئذان مليكه لقبض روحه الشريفة بحسب ما ورد في المدونة الشيعية(١٧) - حتى أن بعض الصحابة من شدّة وقع هذا المصاب الجلل قد نفى تصديق وفاته ﷺ؛ إذ يخرج الخليفة عمر بن الخطابﷺ بُعيد سماع نبأ الوفاة ليخاطب الناس بقوله: ((والله لا أسمع أحدًا يقول مات رسول الله إلاّ قتلته، إنّ رسول الله ﷺ لم يمت وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه أربعين ليلة، والله ليرجعن رسول الله إلى قومه كما رجع موسى إلى قومه وليقطعن أيدي رجال وأرجلهم))(١٨)، فإذا كان حال الصحابة هكذا من هول المصيبة وجليل الخطب، ومن ثمّ فما بال الزهراءﷺ من هذا الاستكبار

للموت واغتياله لأنفاس الحبيب ^ من جهة ربّه العظيم أولًا، ومن جهة ربّه الثاني وأعني والدته فهي™ أم أبيها، ومن جهة ثالثة على ابنته وبقية أهل بيته، وكما نرى عِظم المصيبة على الزهراء من جهتي الأم والابنة وهو يساوق تعاظم الموت وعناده في تسليمها للعزاء عنوةً وإكراهًا، وتتعمّق هوّة كِبر المنية بدلالة التمكّن وظفر المنون واستحكامها على كل جوارحها، وتستفيض دلالة الاستكبار إلى أقصى درجات التضخيم للحزن حينما كنّت عنه ليس بالغراب لونًا فحسب بل أضفت عليها حضورًا حركيًا من خلال نشر جناحيه ليعمّ الغمّ والكدر كلّ أصقاع المعمورة، جاعلةً من نفسها نقطة البداية لهذا الغمّ المؤكَّد من خلال شبه الجملة(عليَّ) من جهة، وديمومة تلك الأكدار(فظللتُ بين سيوفــه ورماحِ) التي لم تفلّ في جراحاتها لقلب الزهراء بتنوّع آلات تلك الجراح وانتهائها إلى أعماق النفس بعدما جعلتها تتنازع الموت نزوعًا من جهة أخرى، فألِفتْ™ الحزن أنيسًا وارتدت ملبوسه القشيب شكلًا ومضمونًا/حضورًا وغيابًا بعدما تلفّع القلب بجلابيبه(١٩):

إنّ حزني عليك حزن جديد وفؤادي والله صــبٌّ عنيد
كلّ يوم يزيد فيــه شجوني واكتيابي عليــك ليس يبيد
جلّ خطبي فبان عنّي عزائي فبكائي كــلّ وقت جديد
إنّ قلبــًا عليك يألف صبرًا أو عـــــزاءً فإنّه لجليد

نلحظ استحكامًا لا مناص له لاستكبار الحزن على الزهراء واستفحاله الذي سرعان ما نجد غيابًا لهذا الاستكبار وانتقاله جذريًا إلى لونٍ من الإكبار والتعظيم لشأنه، وهذا الاكبار يمثّل مسكوتًا عنه غائبًا يحمل في طياته حالة من الانكسار الدائم الوجع، والقائم الألم الذي ما فتأت سلام الله عليها مواجهته بالصبر سلاحًا على الرغم من أنها كانت ترى وهاء هذا السلاح وخواءه في قبالة جلادة قلبها المتجدّد كربه، والمتجذّر عزائه، وهنا نلمح دلالة استكبارٍ أخرى تنبثق من تلك الجلادة الموما إليها قد ناشت هذا القلب المفجوع من حيث مكابرته في عدم إعطاء هذا المصاب حقّه من العزاء

وتشحّطه في المواساة على أبيها على الرغم من ديمومة العبرات وسرمدية الاكتئاب والشجو غير الفانيينِ؛ إذ تقول:

إنّ قلبــًا عليك يألف صبرًا أو عـــــزاءً فإنّه لجليد

من ألوان الاستكبار المعنوية الأخرى، قولها™ في استكبار الأيام وتكالب الأزمان وتمرّدها غدرًا بآل محمدٍ الكرام(٢٠):

حاشـــا بني فاطمة كلّهم من خِسّةٍ تَعرِضُ أو مِن خَنَا
وإنّمـــا الأيامُ في غدرها وفعلها السُّوء أســاءتْ بنَا
لئن جنى من ولدي واحد تجعل كلّ السبّ عَمــدًا لَنا

ابتدأت الزهراء خطابها بالتبرير وإلقاء الحجة عن طريق التنزيه بـ(حاشا) تبرئةً لنفسها وأبيها وبنيها وبعلها وبقية ذراريها ومتعلقيها- السابقون منهم واللاحقون- من كلّ رذيلةٍ وفاحشة تصيب أحدًا منهم بدلالة إلحاقها بجملة التوكيد الجمعية(بني فاطمة كلّهم)، ومن الجدير بالاشارة إنّ تعويل الزهراء في هذا الخطاب على لفظتي: (خسّة) و(خنا) فيه الشيء الكثير من الشمولية والاحاطة الحضورية/الغيبية؛ إذ إنّها نزّهت أهلها جميعًا على صعيد القول المُمثّل بالـ(خنا) وهو فاحش الكلام، وعلى صعيد الفعل الممثّل بالـ(خسّة)، ومن البدهي فهذه التبرئة تحمل في اكنافها إكبارًا لبني فاطمة قاطبة في الحاضر والغائب والمستقبل في قبالة استصغار الأيام وعصفها، وتحجيم دولة عواتيها التي استفحلت استكبارًا وتعاظمًا وعنادًا بأفعالها المشينة وسوء صحائفها مع أهل بيتها، فالقصر بـ(إنّما) أجمل تاريخًا عريضًا من الممضّات المضمرة التي تكفّلت دلالة الغدر المطّردة ودوام الأفعال السيئة غير المتناهية بحقها وأهل بيتها سلام الله عليهم في بيان تفاقم الرزايا لتلك الأيام التي ليس فيها من حسنٍ مع الزهراء بعدما جُبلت على كلّ أنواع القبح والفساد والنقص والعيب ولعلّ الدليل على هذا التوصيفِ، التقديم والتأخير الذي وقع في بنية القافية (أساءت بنا) وتقدّم فاعلها (الأيّام)- وإن

وردت في موضع إخبار في بُعدها النحوي بادئ ذي بدء-؛ إذ قدّمت الزهراء تخوّن الأيام لها وتعهّدها إيّاها بالرزايا على الرغم من نقاء السريرة والجناب المفصح عنهما في البيت الأول من جهة بني فاطمة أجمعين يفصح عن استكبار الذليل الذي يمثّله الزمان بمطلق العبارة على أسياده وهم أهل البيت الأطهار› فلولاهم لتماهت الأزمان واضمحلت المواقيت كونهم رحمة؛ إذ صارت الأيام أو قلْ الزمان يتقصّد آل المصطفى ويتصيّد معهم بأمواه عواتيه ودواهيه العكرة على الرغم من تحمّلهم لأعباء الأمة الاسلامية على مختلف العصور والأزمنة، فلم يدّخر لهم هذانِ المستكبرانِ أي الزمان والأمة – وهي أداة الجناية لهذا الزمان- خلا الشتيمة والقبح والتقتيل والتشريد[تجعل كلّ السبّ عَمــدًا لَنا]، لكن عظيم شفقتهم سلام الله عليهم يزيدهم إكبارًا في عوالم الموجودات الحاضرة منها والغائبة، فمع كل ما نالهم نجدهم يطلبونَ الرحمة والمغفرة لمن أساء لهم، سائلين إيّاه التوبة:

فتُبْ إلــى اللهِ فَمَن يقترِفْ إثمًا فلا يأمــنُ ممَّا جَنَى

من الدوال المعنوية الحاضرة إكبارًا واستكبارًا، المصيبة والواردة في قولها(٢١):

قُلْ للمغيّبِ تحت أطباقِ الثرى إن كنت تسمع صرختي وندائيا

صُبّت عليّ مصائبٌ لـو أنّها صُبَّتْ علـى الأيّامِ صِرنَ لياليا

نلمح في النص تعظيمًا وإجلالًا لفَقد الأب الحاني الذي لا شبيه له أو نظير على قلب الزهراء بغض النظر عن كينونة هذا الفقد يعني غياب نبي الرحمة وأفول نجم سيد الخلائق [تحت أطباقِ الثرى] التي زادت إكبارًا باحتضانها لرفات سيد ولد آدم في إزاء هول وقع هذا الغياب على الكون أجمع؛ إذ اتقنت الزهراء™ في رسم لوحته حينما صيّرت لمّة الزمان شيباء نتيجة استكبار المصائب ووقوفها حائلًا في ايصال صرخة الابنة المفجوعة إلى مسامع أبيها المسجّى، بل إنّ تلك المصائب قد تمادت في شعوائها لمّا جعلت الأكدار وكأنّها ماء مسكوب على رأس الزهراء في إشارةٍ إلى كثرة تواترها وتلاحقها في الأثر، فبالغت في عتوّها وتجاوزها للحدود من حيث عدم اعتبارها لقيمة السيدة

المعصومة التي يغضب الربّ الجليل لغضبها، الأمر الذي يحيل إلى عدم استشعار قلب تلك المصائب – لو شخّصناها وتخيّلنا أن لها قلبًا– لوقار الله تعالى وهيبته وجلاله(٢٢)، فانطلق لسان حالها بوابلٍ من الفجائع والرزايا التي لا تصدر إلاّ عن قلبٍ يرجو لقاء الله تعالى؛ لذا أخذت الزهراء على عاتقها التشبّث بالله تعالى ليلهمها صبرًا يوازي هذا التنصّل والتنكّر من جانب المصائب، وتهرع لعينيها مخاطبةً إياهما بالجود في بكائهما لتنفث جوى حسرةٍ جدّدتها عاطفات الفجائع، فتقول(٢٣):

فالله صبّرني على ما حلَّ بي مات النبي قد انطفى مصباحي
يا عينُ بَكِّي عندَ كلّ صباح جُودي بأربعةٍ علـــى الجرّاحِ

فهل نظن أن البكاء والدمع يجديانِ نفعًا مع مصائب الزهراء الجمّة حتى أنّنا نلمس استكبارًا للحياة برمّتها بعدما نزعت نحو تضييق الخناق عليها وتجريعها العذابات غصةً بعد غصةٍ فحبست حتى زفراتها التي غدت تتكسّر في صدرها، وصارت سلام الله عليها تتمنى قصر الحياة بصفتها الكونية العظيمة بشكلٍ عام، وقصر حبل عمرها الشريف بشكلٍ خاص، وفي هذا دلالة واضحة على تعاظم الحياة كِبْرًا وإكبارًا في دناءتها ولؤمها بعد غياب المصطفى[٨]، وهذه الزفرات الملتاعة نلمسها في قولها عند قبر أبيها وهي تنشدها بحرقةٍ ونحيب مخاطبةً إيّاه(٢٤):

نفسي علـى زفراتها محبوسة يا ليتها خرجـــت مع الزفرات
لا خير بعدك في الحياة وإنّما أبكي مخافة أن تطول حياتي

الخاتمة:

نخلص من هذا الاستشراء لآفة الاستكبار منذ العصور الغابرة وقوفًا بها عند زمن الزهراء™ وصيرورة هذه الآفة كائنًا حيًّا ينمو ويتكاثر، يضمر ويظهر، يحضر ويغيب لكنّه لا يختفي أو يضمحل، فهو الأصل لمختلف الأمراض المجتمعية التي قوامها العنف والاضطهاد وما تتبعها من

حروب ضارية تأكل الزرع والنسل فلا تبقي ولا تذر وهذا ما حصل واقعًا لمظلومية آل الزهراء قاطبةً من يوم السقيفة الى يومنا هذا ونحن نتضور على هجير المستكبرينَ من النواصب.

لقد اتبعت الزهراء أسلوبًا مسكوتًا عنه في العلاج الوقائي ضمّنته خطابها الشعري ردًّا على الشراذمة الجبابرة وقد اتسم هذا الأسلوب بلونٍ من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لقد عالجت الزهراء™ قضية الاستكبار بلسان الحزم ورباطة الجأش المشوبة بمسلّمات العفو والحنو والرحمة المعهودة في آل بيت المصطفى على هؤلاء المستكبرينَ ودعواتهم الدائبة، في نأيهم وحضّهم لكلّ متكبّرٍ سوّلت له نفسه الغاوية الخروج عن سبيل العلي الأعلى في التواضع والتراحم، ولزومه لجادّة العنت والاستعلاء التي تفضي نهايتها إلى القطيعة مع الله تعالى باستكبارهم على الذات الإلهية:﴿ إِنَّهُم كَانُوا إِذَا قِيلَ لهُم لاَ إِلَه إِلاَّ اللهُ يسْتكْبرُون ﴾ (الصافات: ٣٥)؛ فإذا كان الأمر هكذا مع خالقهم الأوحد فما بالنا بهم مع أبناء جلدتهم من بني آدم.

زِدْ على ذلك أنّنا نلحظ ورود جلّ صور الاستكبار التي عالجتها الزهراء سلام الله عليها متضامّة في علاقة تلازمية وثيقة مع الإكبار والحضور الفاعل لهذا الإكبار في كِلا شقّي الاستكبار المادية منها والمعنوية، فضلًا عن مجيء تلك اللوحات الاستكبارية مشوبةَ بمستودعات من الحزن الدامي لفقدِها™ لأبيها المختار الذي كالب استشهاده كلّ النفوس المريضة المضمرة بالأحقاد حتى تستفيق من سباتها العميق وتغلّ خناجر ضغائنها في ابنته وفلذات كبدها-الحسنينِ- وبعلها»، ومن ثم فإنّ تعالي صوت الحزن والمصيبة وارتباطهما بشخص الزهراء قد أضاف عليهما إكبارًا وتعظيمًا في مقابل استكبارهما عليها، وفي هذا الأمر توكيد لقتامة صورة الاستكبار وتضخيم سوداويته وفجاجته.

الهوامش:

(١) ينظر: مناشئ الضلال ومباعث الانحراف: السيد مرتضى الحسيني الشيرازي: ١٠٤.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية: العسكري: ٢٤٦- ٢٤٧.

(٣) ينظر: الكِبْر (سلسلة أعمال القلوب[١٠]): محمد صالح المنجد: ١٢.

(٤) الديوان: ٣٩.

(٥) نفسه: ٥٤.

(٦) نفسه: ٣٩.

(٧) ينظر: أوكار الاستكبار: د.نور الدين أبو لحية: ٤.

(٨) الديوان: ٥٩.

(٩) نفسه: ٣٠-٣١.

(١٠) أدب الكاتب: ابن قتيبة: ٢٨.

(١١) ينظر: الكِبر: ٣٩-٤٠.

(١٢) الديوان: ٥٥.

(١٣) نفسه: ٥٥.

(١٤) ينظر: صحيح البخاري: ٢١٠/٤، وصحيح مسلم: ١٤١/٧.

(١٥) الأذكار النووية: يحيى بن شرف النووي: ٣٧٢.

(١٦) الديوان: ٣٩.

(١٧) ينظر: الطبقات الكبرى: محمد بن سعد: ٢٥٩/٢، وكشف الغمة: ابن أبي الفتح الأربلي: ١٨، وبحار الأنوار: العلاّمة المجلسي: ٥٣٢/٢٢.

(١٨) الفصول المختارة: الشريف المرتضى: ٢٤١.

(١٩) الديوان: ٤١.

(٢٠) نفسه: ٥٥.

(٢١) نفسه: ٥٨-٥٩.

(٢٢) ينظر: مفهوم الاستكبار والاستضعاف: د.مصطفى أوعيشة: ٦٤.

(٢٣) الديوان: ٤٠.

(٢٤) نفسه: ٣٧.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أدب الكاتب: ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط٤، مصر، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.
- الأذكار النووية: يحيى بن شرف النووي(ت٦٧٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- أوكار الاستكبار حوارات مع كبار الطغاة في التاريخ: د.نور الدين أبو لحية، دار الأنوار للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م.
- بحار الأنوار: العلامة المجلسي(ت١١١١هـ)، تحقيق عبد الرحيم الرياني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، ط٢، بيروت- لبنان، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- ديوان فاطمة الزهراء™: تحقيق كامل سلمان الجبوري، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، ط١، بيروت- لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- صحيح البخاري: البخاري(ت٢٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة بالأوفسيت عن طبعة دار الطباعة العامرة باستنبول، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- صحيح مسلم: مسلم النيسابوري(ت٢٦١هـ)، دار الفكر، بيروت- لبنان، (د.ت).
- الطبقات الكبرى: محمد بن سعد(ت٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت- لبنان، (د.ت).
- الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ)، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).
- الفصول المختارة: الشريف المرتضى(ت٤١٣هـ)، تحقيق السيد نور الدين جعفريان الأصبهاني والشيخ يعقوب الجعفري والشيخ محسن الأحمدي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- الكِبْر(سلسلة أعمال القلوب[١٠]): محمد صالح المنجد، مجموعة زاد للنشر، ط١، الخُبَر- المملكة العربية السعودية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
- كشف الغمة: ابن أبي الفتح الأربلي(ت٦٩٣هـ)، دار الأضواء، ط٢، بيروت- لبنان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

- مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم: د.مصطفى أوعِيشة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.
- مناشئ الضلال ومباعث الانحراف: تقرير لمحاضرات التفسير لسماحة السيد مرتضى الحسيني الشيرازي، المقرّر الشيخ أبو الحسن الاسماعيلي، مؤسسة التقى الثقافية، النجف الأشرف، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.